المحاسبة على مشاريب قديمة

عبد الحكيم حيدر

حينما كان يحلو صفاء الضحك في مقهى مع الخطّاط الراحل حامد العويضي، ويطيب السمر، وتدخل أطراف الحكايات في أمر «الناس المشاكل» بعدما سمعنا أنّ رجلاً صعيدياً كان مبسوطاً في مطعم «الخمس قطط» قد شقّ بخاتمه صدغ شاعر، حينما رمى الكلام عليهم غامزاً، بأنّهم من حلاليف المقاولين، سكت الصعيدي وضحك، وقال له: «أحنا في ليلة سعيدة وبلاش الغلط يا رجّالة». ألا أنّ الشاعر زاد انبساطه فرقص وهزّ مؤخرته في مقابل «ترابيزة الصعيدي» فضحك الصعيدي ورمى «النقوط» أدباً لقعدة الشاعر المبسوط، وقال له: «أحنا في أيام حلوة وما ينفعش نعكّر على الناس الفرحة» ولمّ العبابة حول نفسه، وأرسل أيضاً باقةً من الورد للناس الطيبة، ألا أنّ الشاعر، كما قيل، أحبّ أن يجعل الليلة كلها له، فنال عقابه في آخر الليل، قلت لحامد: «بس العقاب شوية صعب يا أبو صلاح» ضحك حامد وذكر لي حكايات عن «العيّال الصيّع»، الذين يشربون الشاي أو القهوة، ثم يفرّون من المقهى كاللصوص من دون دفع الحساب، وقد اعتبروا ذلك سكّة مبكرة من سكك الفتونة، رغم أنّ القهوجي البسيط الذي يراهم في تلك الحالة غالباً ما يضحك ويتسامر مع المقرّبين منه حتى آخر الليل في أمر هؤلاء الذين فرّوا من دفع الحساب، رغم أنّهم من مظهرهم يبدو عليهم أنّهم من أولاد الناس، ويصعب عليه حال الدنيا، بعدما تبدّلت الأحوال، وجاء بأمر شباب يفرّون جرياً من دفع الحساب، فيسمع الكلام كفيلٌ بلازم المقهى بزيّه الأزهري، ويقول للقهوجي: «البرّة الجاية إن مسكتهم نعلقهم في الفلكة في القهوة وأنا اللي آديهم الطريحة بنفسي» فيسكت القهوجي، ويقول: «ولا طريحة ولا يحزنون مش يمكن يكونوا مفلسين يا سيدنا». يضحك سيدنا ويأتي على ذكر فتى من قديم الزمان كان اسمه «عكشة» ترك الأزهر صبياً، وكان قد تعوّد مثل هذه الأفعال في المقاهي، والآن صار ابن طريقة، وعمامته في حجم بلاصين، وقد صار شيخاً كما قيل بعدما أخذ، علقة موت، عندما ضُبط في مقهى بالإمام الشافعي. يضحك حامد قائلاً: «يا حكيم، أنت زعلان دي مشاريب قديمة العيال دي هارية من دفعها زي عكشة كده؟». يأخذنا السمر بعد ذلك مع حامد العويضي الحكّاء، إلى بواكي شارع محمد علي، وإلى صنايعية الأفراح والعيدان، وأنه كان يسكن في بيت قديم بالسيدة زينب من بابه، يصول حامد العويضي ويجول في ليل القاهرة أيام كانت هادئةً من السيدة زينب، وهو طالب هندسة في أواسط السبعينيات، حتى يصل بنا إلى «لوكاندات» سيدنا الحسين. يحكي حامد عن قيمة العمل وشرفه، وكيف كان يسهر في ورشةٍ كي يكتب كلمات الميدالية: «أنت عمري»، و«يا مسهرني»، وكيف أشتري في ليلة عيد خروفاً في السيدة زينب، من أجل الأقارب الصعايدة، حينما امتلأ البيت بهم في موسم عيد، وكيف أرسل إليه صاحب محل عطارة «مخلصان حق» شوالين من البهارات الحرّاقة، بعدما كتب له إعلاناً جميلاً ما زال يضيء بجوار سيدنا الحسين بالكهارب، فشال الصعايدة البهارات إلى قرامهم، وظلّ هو يضحك كلما مرّ سنوات على الدكّان بعدما مات صاحبه.

يحكي حامد عن قيمة العمل وعن النحل وعن العسل، وعن الشغالات في «لوكاندات» سيدنا الحسين، وكيف يكافحن لتربية بناتهن وأولادهن بعد موت الزوج، ولا تستطيع أن تكلّمها بكلمة سوء أبداً، ويحكي عن الشعر حينما لا يصدّقه، والغريب أنّ الكذبة يكتبونه بهمة عكشة نفسها، وهروبه من دفع المشاريب، حتى صار بعضهم أقرب إلى اللصوص. يتكلم حامد العويضي عن الأثر الروحي للكتابة، ويقول تلك هي خارج الصنعة والبهلوانية واختراق «التابو» وهذا الكلام الهلس وخارج حتى العروض، لكنّ الكتابة تسبيحات من الروح بكلمات، ليست هائمة في الفراغ أو العدم، وإذا بالشيخ أحمد برين يدخل الحكاية، حكاية حامد العويضي، فيقول لي حامد: «تعرف، يا حكيم، أنا بحب الشيخ أحمد ليه؟ مش لأنّه منشد، ولا كفيف، ولا صوته حزين، ولا حاجة من ده كله، أنا بيدهشني فيه الشاعر النائم داخله، ولا يستيقظ بشكل فطري إلّا مع صهللة السامر والإنشاد، هذا ما يدهشني، كيف يدخل إلى جوهر الشعر من دون أن يقصد ذلك وبكلّ أريحية وبساطة»، ثم يضحك حامد ويقول: «بنقصنا الكثير حتى نفرح بالشعر» ويشير إلى القهوجي وهو يضحك كي يدفع الحساب، وإلّا فسنهرب مثل عكشة.

في اقتياد الثورات

الفيتوري شعيب

تعاني الثورات العربية انتكاسة كبيرة بعد نجاحها شعبياً في تحقيق الثورة والتخلص من الاستبداد في بداياتها، ولكن عادت إلى المربع الأول تدريجياً، وإن اختلفت الأدوات والوقائع التي لا تكون له، أي: الشعب، كلمة الفصل فيها.

وفي المقابل، فإن قبل الثورات واقع مغاير لا يمكن أن يكون بعدها، ولو حاول أنصار الثورات المضادّة ذلك، ولا يزالون يحاولون، وإن نجحت في بعض هذه الدول جزئها إلى الخلف والعودة بها إلى المربع الأول، غير أن ذلك غير متاح بشكل كامل وشامل في هذه الأزمان، فلا يمكن أن يتسلط حاكم على شعبه مهما أوتي من القوة، والدعم الخارجي، وحتى التدبير، باعتبار أن ذلك يسبح في عكس التيار، وإن وجد مثل ذلك فهي شواذّ لا يسمح النظام المعرفي الحالي أو حتى الشعبي، ناهيك عن الاجتماعي والسياسي ببقائها طويلا.

لا يخفى على أحد أنهيار أنظمة الاستبداد في بداية هذه الثورات، بغض النظر عما كان بعدها، فالحالة الثورية الشعبوية، وإن كانت نجحت في إسقاط رؤوس الاستبداد، إلا أن الحالة الثنخوية المتمثلة في الكيانات السياسية المختلفة لم تستطع تقديم نموذج معرفي حقيقي، يمكن أن يطبق في أدنى درجاته يجعل الشعب كلمة الفصل، عندما يراد التغلب عليه، وإسقاط إرادته، بل ما كان على النقيض من ذلك، أجسام سياسية جعلت من القاعدة الشعبية المشتّة لها في آخر اهتماماتها، وبالتالي أسقطت قوتها الناعمة، وهذا موطن الضعف الذي اتخذته وعملت عليه الثورة المضادّة في إرجاع الشعوب إلى من هذا التوتر. لقد جاءت النتائج، على مرارتها، مثل جرعة الأوكسجين المريض لم يعرف بعدُ الأطباء سبب غيبوبته، إنها مسكّنٌ لهواجس الطبّ لا أكثر كي يعمل الطبيب بعقل هادئ وبدين ثابتين، ريثما تأتي نتائج التحاليل النهائية من المختبر. مصير التحالف بين قطبي الاتحاد الرئيسيين كان معلقاً إلى جانب عبوة الأوكسجين ذاتها، ونزوله عن الصليب الذي ليس ضمانةً بعدم الرجوع إليه قصْرَ الزمن طال، فالحمل ثقيلاً على العملاقين الأوروبيين، وليس في البيد الأميركية المعمودة خيرٌ أكثر من الشر القابع في فوهات المدافع الروسية.

(كاتب سوري)

بين اليمين وأقصاه... فرنسا الحائرة

حسان الأسود

فوزٌ بطعم الخسارة، أو هزيمة بنكهة الربح الحادّة، هكذا يمكن قراءة نتائج فوز إيمانويل ماكرون في الانتخابات الرئاسية الفرنسية التاسعة في الجمهورية الخامسة، وهذه هي صورة خسارة مارين لوبان على الضفّة المقابلة. قال الناخب الفرنسي كلمته مجبراً على اختيار رئيس أقلّ سوءاً من رئيس آخر، فلم يكن الخيار محضَ حرّية، بل كان لإجاء واضطراراً بتعبيرات بين السيئ والأسوأ. سوءاً بتعبيرات حقيقية صارخة لعموم الطبقات المتوسطة والفقيرة في فرنسا، ولعموم الفرنسيين من أبناء الجاليات العربية والمسلمة، أو ذات الأصول غير الفرنسية الصرفة، كالأفارقة وسكان المستعمرات السابقة والمهاجرين الآسيويين الآخرين. هذا الاختيار الذي أجّل الاحتراب الأهلي الداخلي خمس سنوات على الأكثر، حسب تعبير بعض المتشائمين، هو ذاته الذي يمكن أن يُطيل عمر الاتحاد الأوروبي المترنح بين ضربات الرئيس الروسي بوتين شرقاً وابتزاز الولايات المتحدة غرباً. شعر الفرنسيون بسمُّوليتهم عن إبقاء المشهد في قطعاته الأخيرة على مقربة من الخطم، فلا السيّاف مستحثّ قدومه الآن ولا المحكوم بالقصاص جاهزٌ لتقبّل نصل السيف بعد. ترك الفرنسيون حجر الرحى معلّقاً في عنق ماكرون القادم على أجنحة رأس المال العابر للقارّات، الحالم بأتباع النموذج الأميركي النيوليبرالي اقتصادياً، الساعي إلى تحقيقه في صراع مفتوح مع أكثر من نصف عدد مواطنيه الذين أجبرهم وجه لوبان الأصغر على اختياره، كرهاً لها لا حباً به.

ما بين صرخات أصحاب الشارات الصفراء التي طفقت تجوب ساحات فرنسا بمدنها الكبيرة، لتضعنا أمام مشهد من الغضب المستعمرات وجزر الهيمنة المتبقية خارج حدود فرنسا شيئاً طبيعياً ومستحقّاً، وشعور الكراهية والبغض لأبناء هذه المستعمرات وبناتها القادمين بحثاً عن أمل في المساواة مع مستعمريهم، هو الذي يجعل من فرنسا ما هي عليه الآن من حيرة وتردّد وانعدام اللون والوزن والطعم حتى! شاغل رئيس الأليزيه المنتظر القلق نفسه الذي اضطرب به الشارع الفرنسي، وكان بشكل مرَوّع، فهذا الزمن على ما يبدو ليس زمن الكاريزما المتمدّدة من عظماء فرنسا المركونين الآن على رفوف التاريخ، غاب ديغول ولم يبق من إرثه سوى ظلال خافتة لا يكاد يلمحها الفرنسيون ذاتهم. إنه لألمان أكبر نصيب من هذا التوتر. لقد جاءت النتائج، على مرارتها، مثل جرعة الأوكسجين المريض لم يعرف بعدُ الأطباء سبب غيبوبته، إنها مسكّنٌ لهواجس الطبّ لا أكثر كي يعمل الطبيب بعقل هادئ وبدين ثابتَين، ريثما تأتي نتائج التحاليل النهائية من المختبر. مصير التحالف بين قطبي الاتحاد الرئيسيين كان معلقاً إلى جانب عبوة الأوكسجين ذاتها، ونزوله عن الصليب الذي ليس ضمانةً بعدم الرجوع إليه قصْرَ الزمن طال، فالحمل ثقيلاً على العملاقين الأوروبيين، وليس في البيد الأميركية المعمودة خيرٌ أكثر من الشر القابع في فوهات المدافع الروسية.

(كاتب سوري)

> لم يخف السيسي، مع بدايات ظهوره، الاهتمام بالملف الإعلامي، وحرصه على تكوين أذرع إعلامية، حتى في عام مرسي

كاريكاتير — عماد حجاج

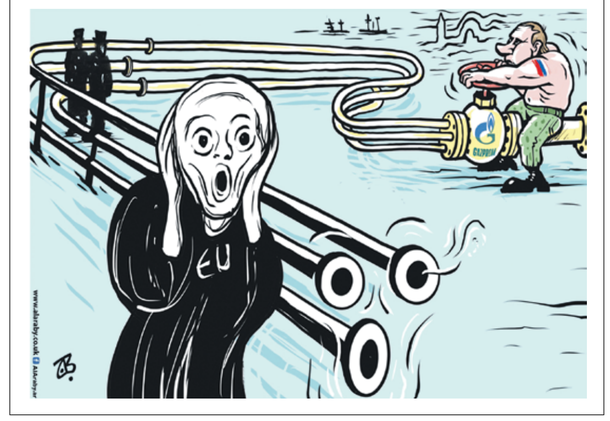

«العربي الجديد» بعد سنتها الثامنة

كمال عبد اللطيف

حقّقت صحيفة العربي الجديد حضوراً نوعياً في المشهد الإعلامي العربي، الورقي منه والرقمي. انخرطت في سوق الإعلام المتعدّد والمركّب والصانع للأحداث والوقائع، وتواصل المساهمة في إضاءة كثير من أوجه الصراع السائدة اليوم في عالمنا. واذكر أن ما لفت انتباهي الى الجريدة في بداياتها، العنوان الذي تحمله، ويشير إلى أفق افترض أن عمل الصحيفة يتجه إلى رسْم ملامحه، لعلها تتمكّن في المدى المتوسط من المساهمة في بناء عروبة أخرى بديلة لعروبة لم يعد لها صوت، في عالم عربي يتحرّك اليوم من دون أفق سياسي واضح. واتضح أن للعروبة في مواد الصحيفة معانٍ تختلف عن الأدبيات التي سادت منذ ستينيات القرن الماضي.

تتجه «العربي الجديد» بخطوات واضحة إلى تركيب أفق في النظر إلى مختلف الأحداث الجارية في العالم العربي وفي العالم. وهي تروم المساهمة في رسم بعض طموحات عرب اليوم، في عالم ساد فيه أغلب المجتمعات العربية تراجع كثير عن القيم التي حملتها الأجيال العربية التي واجهت الاستعمار في منتصف القرن الماضي، وواجهتها، قبل ذلك، الأجيال التي تفتّحت بمشروع النهضة العربية. لم تكن مهمة «العربي الجديد» سهلة صدور أعدادها الأولى إلكترونيا (30 مارس/ آذار 2014) سهلة، وتضاعفت صعوبتها وهي تواجه أحداثاً لم تكن متوقعة في المحيط العربي. واجهت إيقاع الانفجارات الاجتماعية والسياسية التي كانت تقف وراء الثورات العربية وتداعياتها. كما واجهت الخلافات العربية العربية، وواجهت عودة الاستعمار إلى بلدان عربية كثيرة، في سياق ما أفرزته تداعيات ما بعد الثورات. ولم تتوقف رياح الثورات العربية، وقد عمّت في النهاية أغلب البلدان العربية، وترتّب عن ذلك نشوء ثورات مضادّة، عمل أصحابها على مواجهة المد الثوري العربي، وحاولوا التصدّي لكل ما يؤجّج أشكال مقاومة الاستبداد داخل المجتمعات العربية.

واجهت الصحيفة ما أشير إليه أعلاه بخيارات واضحة، وبحرفية في المقاربة والتحليل والرأي. كما واجهت جنينية مشروع الانتقال من دولة الاستبداد إلى الدولة العربية الديمقراطية، في البلدان التي نجحت فيها الثورات، بمختلف ما تَرتّب عن ذلك من استقطابات سياسية ومعارك جديدة، وبكل صور العنف والتناقض التي حملتها وما زالت تحملها الأوضاع العربية، منذ حراكها الثوري سنة 2011.

كانت لا تتردّد في الإعداد للأحداث الكبرى عن طريق إنشاء ملحقات وملفات تمكّنها من مواكبة أهم الأحداث القومية والدولية وبصورة متتابعة، تقترب منها من زوايا مُتعدّدة، وتفتح المجال أمام مختلف التناقضات المؤسّسة لأبعادها المختلفة. نقف ونحن نتابع عمل الصحيفة على جوانب من الجهود التي ركّبت، وتواصل اليوم تركيبها في ملحق فلسطين، حيث تقدّم مواد الملحق مواقف متعدّدة من تناقضات المشروع التحرّري الفلسطيني وتحوّلاته، في زمن يتسم بكثير من التراجع عن القيم والشعارات التي ارتبطت بمشروع التحرير في ستينيات القرن الماضي.

نُعاين، أيضاً، ونحن نفتح ملحقها عن وباء كورونا، وأشكال غزْوه المجتمعات البشرية، والإشكالات الطبية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية المترتّبة عنه، فنقف على كيفيات في مقاربة الوباء تتسم بكثير من التنوع. وتواجه الصحيفة اليوم حرب أوكرانيا بالروح نفسها وبالأفق نفسه اللذين تتعامل بهما مع القضايا العربية في البلدان العربية، حيث يحضر الرأي العربي والموقف العربي وزاوية النظر العربية، كما تحضر الملامح العامة لآفاق التغيير الجارية، والتي يُنتظر منها أن تساهم في تعديل كثير من أسس العلاقات الدولية في عالم جديد.

خرجت «العربي الجديد» خلال السنوات الماضية على تجديد طرقها في العمل، سواء في شبكة الملاحق التي تصدرها، أو في موقعها الرقمي وكذا في نسختها الورقية. واستوعبت بنيتها كثيراً من التجديد، وكثيراً من الفنية العالية في بناء موادها وتقديم هذه المواد. وعندما نقف، على سبيل التمثيل، أمام باب المنوعات أو المرايا أو الكاريكاتور في باب المقالات ونقرأ بعض مدوّنات المدوّنين، نكتشف أننا أمام صحافة جديدة، تعكس جوانب من الثورة الإعلامية المتواصلة في ذلك إلى أنها فتحت صفحاتها وموقعها الرقمي المتعدّد الأجنحة للجدل الجادّ في مختلف قضايا الراهن العربي والدولي. كما فتحت مختلف أبوابها للتطلّعات الجديدة. ومن الأمور المهمة، في هذا السياق، المكاسب العديدة التي بلورتها الصحيفة في صفحاتها الثقافية اليومية، وفي موقع ضفة ثالثة الرقمي الصانع بدوره جهوداً مهمة في الكتابة العربية والثقافة العربية الجديدة.

> فتحت صفحاتها وموقعها الرقمي المتعدّد الأجنحة للجدل الجادّ في مختلف قضايا الراهن العربي والدولي

لا نتردّد في القول إن من أهم مزايا «العربي الجديد» احتضانها المواقف المختلفة والمتناقضة أحياناً، وسعيها إلى تحويل المقالة الصحافية من مقالة تقرير ووصف إلى مقالة إبداع ورسم وتوقّع، وتحويل بلاغة الكاريكاتور إلى رأي قادر على الإثارة والفعل. وبهذه الطريقة، نسجت لنفسها وسط خريطة الإعلامين، العربي والعالمي، موقعاً وموقفاً، فظلت صحيفة التفاعل اليقظ مع مختلف التحوّلات الجارية في العالم. وقدّمت شهادات وآراء وزوايا نظر، اشتبك فيها محرّروها ومختلف الساهرين على مختبرها الكبير مع متغيرات كثيرة تبلورت في الفضاءَين السياسيين، العربي والعالمي.

يُحسَب لصحيفة العربي الجديد في الذكرى الثامنة لانطلاقها، أنها تمكّنت وسط التنوّع السائد اليوم في الإعلامين، الرقمي والورقي، أن تصنع لنفسها مكانة وموقعاً في زمن قصير، يعود ذلك إلى أنها فتحت صفحاتها وموقعها الرقمي المتعدّد الأجنحة للجدل الجادّ في مختلف قضايا الراهن العربي والدولي، كما فتحت مختلف أبوابها للتطلّعات والتوقعات والأحلام، في عالم يتشكل من جديد على أنقاض عالم ينختفي. وقد تحلّت منذ انطلاقها بفضيلة الاستماع والمتابعة لمختلف التفاعلات المترتّبة عن التغيرات والتحوّلات المتواصلة في العالم، في السياسة والاقتصاد والفكر والإعلام، حرصت على أن يكون لها أكثر من رأي في كل قضية، إيماناً من القائمين على ما ينشر فيها بلزوم اليقظة ولزوم التحفظ على المواقف القطعية والقاطعة، ومن دون التفريط، في الوقت ذاته، في المبادئ والمقوّمات الكبرى، التي تحملها تسميتها.. ويحملها مشروعها الإعلامي.

كانت «العربي الجديد» وما تزال، منذ أعدادها الأولى، لا تتخلّى عن شروط الممكن في السياسة، ولا تتردّد في الدفاع عن مختلف القضايا التي تملأ الواقع العربي والعالمي. وقد عايشنا ذلك، ونحن نتابع مواقفها وآراء المساهمين في تحرير أبوابها، حيث تقدّم الصحيفة والموقع الرقمي مواقف تمتاز بالتعدّد والتنوع، كما تقدّم آراء متناقضة وهي تقترب من أسئلة وقضايا سياسية معقّدة، إلا أنها لا تتردّد، في الوقت نفسه، في تركيب ما يوضح أفقها السياسي العام، الأفق الذي يتجه العربي الجديد إلى بنائه، في عالم يمتلك صفة التلاشي، وآخر يحدّد الملامح الكبرى لعالم آخر في طور النشوء والتكوين.

(أكاديمي مغربي)

«الاختيار» بين التزييف والحق في معرفة الحقيقة

احمد مفرح

كان المشير حسين طنطاوي (وزير الدفاع) والفريق سامي عنان (رئيس الأركان) يجاول أن يضفيها على شخصيته، غير المتزنة، على المصداقية، لكنّه يدمن الكذب. لم يقل كلمة واحدة صادقة منذ عرفه المصريون، لا في السياسة ولا الاقتصاد، وتلاعب بالرئيس الذي اختاره بناء على كذبة كبيرة وعَيْنه وزيراً للدفاع، ودائماً يقسم بالله، على أنّه صادق وشريف، فيما تشير ممارساته إلى النقيض، ولدى أعضاء الفريق الرئاسي شواهد وأسرارٌ كثيرة، لكن الخوف على الأسر والعائلات التي في الأسر في قاهرة المعز تحول بين الحقيقة والسرد. رسائل سياسية خفية ودعائية ورخيصة يجري تمريرها مراراً ضد طرفٍ انتهى واقعياً بين المقتلة الكبيرة في المجازر والسجون، على حساب شروط الدراما، فالرئيس القائد الملهم الفتاح العليم القائد الطبيب، بات خبير دراما، ولم يعد يتبقى له إلّا مؤلّف على شاكلة «الكتاب الأخضر» ليصبح مزيجاً من كلّ ديكتاتوريات المنطقة في تاريخيها القديم والحديث.

لم يخفِ السيسي، مع بدايات ظهوره، الاهتمام بالملف الإعلامي، وحرصه على تكوين أذرع إعلامية، حتى في عهد الرئيس الراحل محمد مرسي، وساهمت هذه بفاعلية في عملية الخداع الإستراتيجي التي انتهت بإطاحة مرسي. وجرى تقنين الأذرع الإعلامية هذه لاحقاً ومدّها بإمكانات الدولة للسيطرة على الرأي العام ببروغاندا تطمس الحقيقة. وهنا يمكن القول إنّ الإخوان المسلمين، الذين شُبطنوا في السابق، ربما اختفوا، لكنّ هو مقدّس، لكنّ «الاختيار» محضن، والممثل الذي يؤدّي دور السيسي فيه، ياسر جلال، كذلك بالتبعية؛ فالفرعونية العائدة، هيمنت من هيبة الدولة، التي جرت استعادتها بعشرات المذابح والمجازر والآف القتلى وعشرات الآلاف من المعتقلين لما يقارب العقد، وتاصيل ومن وقائع متصلة بهذا أن شركة تدعى «تواصل» تابعة لشركة فالكون للحراسات الأمنية، استحوذت، في العام 2017، على شبكة قنوات الحياة، التي كان يمتلكها رجل الأعمال ورئيس حزب الوفد الأسبق، السيد البدوي، في صفقة بلغت قيمتها 1,4 مليار جنيه. ويوحي الاسم «تواصل» بأنّ الوصول إلى الجماهير يجري عبر رؤية إستراتيجية واعية وليس اعتباطاً... ولاحقاً تفجرت فضيحة توجيه الضباط الأفنانين والممثلين، وبعد احتجاز الصحف بشكل ناعم عبر أموال إمبراطور الحديد أحمد أبو هشيمة أو بالقوة المفرطة والتهديد كما حدث مع صلاح دياب و«المصري اليوم»، جرى احتكار الدراما والفنانين... حتى ضابط المخابرات ياسر سليم الذي سيطر على ملف الدراما أعتقل وأختفى، كأنّ الأرض ابتلعته، بتاريخه وممارساته وصوره وحكاياته. واختفى الإنتاج الدرامي خارج دائرة المخابرات والرئيس، فالمسلسلات لم تجد قنوات للعرض، وجرى التضييق على التصوير والإخراج، ما تسبّب في خسائر فادحة لصنّاعها.

...الحقّ في معرفة الحقيقة، في المجتمعات التي تتبنى تصورات حقوق الإنسان، هو أساس العدالة، خصوصاً التي تتعامل مع تاريخ من الديكتاتورية والقمع وإرث العنف. يقول بابلو دي غريف، المقرّر الخاص لأمم المتحدة المعني بتعزيز الحقيقة والعدالة وجبر الأضرار وضمان عدم تكرارها: «عادةً ما يُحرَم ضحايا الفظائع الشنيعة، مثل الإبادة الجماعية أو التعذيب المنهجي أو الإخفاء القسري أو القمع من الدولة، من الحق بمعرفة الحقيقة بشأن ما حدث لهم ولأحبائهم ولبلدهم... الكشف عن الحقيقة هو تأكيد لمكانة الضحايا بوصفهم أصحاب حقوق وأعضاء في المجتمع». ففي أعقاب نزاع دُمّر أو نظام قمعي، تغدو معرفة الحقيقة حول الماضي مجرّد خطوة مهمّة نحو إحقاق العدالة، مقابل تعمّد الأنظمة القمعيّة تحريف التاريخ والواقع والأحداث وإنكار ارتكاب الفظائع، بغية تبرير أنفسهم وتأجيج شعور فقدان الثقة. وحتى التحريض على حلقات جديدة من العنف، فالبحث المُجدي عن الحقيقة، هنا، يعزّز العدالة ويساعد على إنهاء مُعاناة الضحايا.

وفي الحالة المصرية، تجاوزت الردّة في توفير المعلومات ومحاولة طمس الحقيقة حتى تقرير لجنة تقصي الحقائق، المعيب والمسيس بحسب القوى السياسية المعارضة، وبينها أحزاب دعت إلى الخروج في 30 يونيو/ حزيران 2013، فعدد قتلى فض الاعتصام في ميدان رابعة العدوية بحسب التقرير: 632 قتيلاً، منهم 624 مدنياً وثمانية من الشرطة. وأضاف التقرير أنّ قوات الأمن أنذرت المعتصمين قبل اقتحام الميدان بـ 25 دقيقة فقط، وهو ما اعتبره المعتصمون الرافضون في إخلاء الميدان» كما دان التقرير قوات الأمن في ما يتعلق بمنع دخول سيارات الإسعاف إلى الميدان لإسعاف المصابين، وعدم توفير طريق بديل للخروج الآمن. وطالب التقرير بفتح تحقيق قضائي مستقل في أحداث الفض، وإخضاع الشرطة للتدريب المستمر في فض التجمعات، ومكافحة الشغب، وتفعيل الاتفاقية الدولية لمناهضة التعذيب... هل يمكن أن يتضمن مسلسل «الاختيار» إشارة إلى تلك النقاط، لإحداث بعض التوازن، في سرديته أم سيتجاهلها كما تم تجاهل النظام التقرير بأكمله وتوصياته؟

(مدير تنفيذي كوميتي فور جستس)

> لم يخف السيسي، مع بدايات ظهوره، الاهتمام بالملف الإعلامي، وحرصه على تكوين أذرع إعلامية، حتى في عام مرسي

ماكرون أفضل... من خرّب أوروبا؟

ياسر أبو هلالة

مثلما كان فوز بايدن أفضل من فوز ترامب لأميركا وللعالم ولمنطقتنا، فإن فوز ماكرون في فرنسا كذلك؛ فوصول المتطرّفة اليمينية مارين لوبان كان سيشكل كارثة لها ما بعدها. من السهل هجاء ماكرون وبالحق، لكن المعيار الأخلاقي المطلق لا يشتغل مع السياسة التي تعتمد المعيار النسبي، وهو على قول الفقهاء «أهون الشرّين وأخفّ الضررين». وهذا لا يقلل من مخاطر الحضور القوي لليمين المتطرّف الشعوبي الذي يهدّد قيم الجمهورية الفرنسية بخاصة، والقيم الغربية الليبرالية بعامة. لماذا وصلت أوروبا إلى هذا المنحدر، بحيث يستقر سياسيون متطرّفون في قلب العملية السياسية بعد أن كانوا على هامشها؟ لا تقتصر الإجابة على العوامل الاقتصادية التي أدّت، في القرن الماضي، إلى صعود النازية، دخلت عوامل لم تكن في القرن الماضي، وعلينا عربيا ومسلمين أن نمتلك الجرأة لمحاسبة أنفسنا، وعدم الاكتفاء بتحميل الغرب مسؤولية الكراهية لنا، فموجة العنف والإرهاب باسم الاسلام وقضايانا العربية، من «القاعدة» إلى «داعش»، أشعرت الغربيين بالرعب. زرت باريس أول مرّة بدعوة من الخارجية الفرنسية عام 1996. وجدتها ملاذا للعرب الهاربين من ظلم بلدانهم وخصوصا الإسلاميين، هؤلاء الذين عملوا ودرسوا وأخذوا الجنسية، واندمجوا في الحياة الفرنسية، هم الأكثرية. مثلهم مثل رفاعة الطهطاوي عندما ألّف كتابه «الذهب الإبريز في تلخيص باريز»، لكن ثمّة قلة تبنّت العنف والإرهاب خوّفت الفرنسيين، وجعلت اليمين المتطرّف ملاذا لهم.

عامل آخر لا يقل أهميةً ساهم في تخريب أوروبا، وهو الدعم الروسي لليمين المتطرّف باعتباره ذراعا ضاربا لبوتين، معتمدا على قوة المال وشبكات التواصل الاجتماعي ومنصّاته والنفوذ الاستخباري. ولذا كان التصويت للمرشّحة اليمينية لوبان تصويتا لبوتين الذي سبق له أن نجح في التدخل في الانتخابات الأميركية البعيدة. فكيف في أوروبا القريبة؟

أثبت تحقيق استقصائي نشره موقع New Lines، بالأدلة والوثائق، اعتماد حزب أوروبي رئيسي معروف بسياساته العنصرية والمعادية للأجانب على التمويل والدعم السياسي الاستراتيجي من وكيل رئيسي ومُتجوّل نفوذ للكرملين.

إحدى الخطط التي أعدتها المنظمة في مارس/ آذار 2021 تتوخّى إنشاء شبكة تُعرف باسم «الْتينترن»، تقلد منظمة أيام الاتحاد السوفييتي كانت تهدف إلى تجنيد الأجانب برعاية البلشفية وإثارة الانقلابات في الخارج. ومن بين الذين كان من المقرر انضمامهم أنصار حركة الديمقراطية والهوية التي تشغل 64 من 705 مقاعد في البرلمان الأوروبي، وتتألف من أعضاء العصبة والتجمع الوطني، المعروف سابقًا باسم الجبهة الوطنية، وهو الحزب الرجعي والشوفيني الفرنسي، برئاسة مارين لوبان. «بدون مشاركتنا النشطة ودعمنا الملموس للأحزاب الأوروبية المحافظة، ستستمر شعبيتها وتأثيرها في أوروبا في التضاؤل». .. جاء في وثيقة داخلية أعدّها ياكوشيف، وجرى تداولها بين ضباط بوتين.

تسعى الدعاية الروسية التي تقودها شبكات تواصل ومنظومة إعلام باللغات الإنكليزية والأوروبية إلى تقويض الديمقراطية الغربية، وإضعاف الوحدة الأوروبية والابتعاد عن حلف الناتو ونشر الفكر القومي المتطرّف.

بالنتيجة، هزم بوتين في معركة الانتخابات الفرنسية، والمأمول أن يهزم عسكريا في أوكرانيا، والعالم بدونه سيكون أفضل. المهم أن نستفيد من هزيمته لصالح قضايانا، وقد اعترف ماكرون بأن صوّتوا له ليس كلهم معه ومنهم من صوّتوا ضد اليمين. من مصلحتنا استعادة القيم الليبرالية في أوروبا. هذه القيم أفضل لقضايانا العادلة، وأفضل للبشر الموجودين في أوروبا، وخصوصا السوريين الذين قتلهم طيران بوتين، ولاحقهم إعلامه بعد قتلهم، معتبرا أن المجازر التي هربوا منها هي دعاية من منظمة الخوذ البيضاء.

صراع السرديات في «فتح الأندلس»

محمد احمد بنّيس

على الرغم من ضعفه الفني الواضح، كتابة وسيناريو وإخراجاً، لا يزال مسلسل «فتح الأندلس» (إخراج الكويتي محمد سامي العنزي) يثير جدلاً واسعاً بسبب المغالطات التاريخية التي يراها منتقدوه تسيء إلى بلدان المغرب العربي، وتحديداً المغرب والجزائر. وكان جديد فصول هذا الجدل، رفض المحكمة الابتدائية في الرباط النظر في دعوى رفعها أحد الناشطين على الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة المغربية من أجل وقف عرض المسلسل. وقبل ذلك، كان نائب في البرلمان قد وجّه سؤالاً إلى وزير الثقافة والشباب والتواصل، يطالب فيه بالكشف عن «الإجراءات التي ستتخذها الوزارة بغاية صون تاريخ المغرب وتخليده، بعيداً عن المغالطات (...)»، في خطوة مفاجئة، هذا في وقت هناك كثير مما يمكن أن يقوم به هذا النائب أو غيره، في ظل ما يعانيه طيف واسع من المغاربة من تردّي الوضع المعيشي نتيجة مخلفات الجائحة وارتفاع أسعار المحروقات والمواد الغذائية.

يرى منتقدو المسلسل أنه يتضمن مغالطات عن تاريخ المغرب وحضارته ومكوّناته الأهلية والثقافية الأصلية. وأنّه يُشرعن الاحتلال الإسباني لمدينة سبتة، بتقديم حاكمها، إبّان الفتح («الغزو؟») الإسلامي باعتباره قوطياً («إسبانيّاً»)، إضافة إلى الشكل الباهت الذي قُدّمت به شخصية طارق بن زياد وتزييف الحقائق بشأن أصوله التي يقول جزائريون إنّها جزائرية بحتة. وعلى ما يمكن أن تثيره هذه القضايا من نقاش، يظل القول الفصل فيه لأهل الاختصاص، فإنّ ما قدّمه المسلسل لا يبدو أنه يتجاوز حرية الرأي والإبداع، فالتوظيف الدرامي والتخييلي للتاريخ ليس محفوظاً باسم أحد ما دام الأمر لا يتعلق بتوثيق أحداثه، والسرديات تتجاذب وتتصارع، وقد تتوافق في لحظةٍ ما سرديةٌ جامعةٌ تستوعبها من دون عسر. ويجدر التذكير بأنّ التلفزة المغربية سبق أن عرضت أعمالاً درامية، تناولت فتح الأندلس من دون يثير ذلك أي اعتراض حينها، ومنها، على سبيل المثال، مسلسل «موسى بن نصير» (1983، إخراج جلال غنيم).

يمكن تفسير الجدل الذي يواكب عرض «فتح الأندلس» بحالة الانسداد الفكري والسياسي التي وصل إليها التيارات القومي والإسلامي في المنطقة، بالتوازي مع صعود خطاب هوياتي أمازيغي يدافع عن هوية مغربية متعدّدة الروافد والمكونات. ويرى أنّ طرح قضايا التاريخ والذاكرة والهوية في المغرب ينبغي أن يتحرّر من وصاية هذين التيارين، ذلك أنّ «التاريخ الرسمي» (العربي الإسلامي) لمنطقة شمال أفريقيا ينطوي على مصادرةٍ ليس فقط للشعوب الأصلية ومورثها الثقافي، بل أيضاً يُكرّس ما تعيشه الثقافة الأمازيغية من إقصاء على مختلف الواجهات، فيما يحيل إلى إعادةٍ اعتبار للفترة التي سبقت وصول الإسلام إلى المغرب. وبالطبع، يتغذّى هذا الخطاب، مثل غيره من الخطابات الهوياتية، على ما تراكم على الصعيد الدولي من أدبياتٍ بشأن الأقليات والشعوب الأصلية والتنوع الثقافي. وأبرز ما يؤخذ على مسلسل «فتح الأندلس» افتقاده خلفية ثقافية تتوسّل بما استجدّ في هذه القضايا من تراكماتٍ نظرية، ولا سيما في حقل الأنثروبولوجيا بمختلف فروعها. وقد بدا ذلك واضحاً في جهله بجوانب كثيرة من التاريخ الاجتماعي في شمال أفريقيا قبل الإسلام، هذا فضلاً عن «سقطته» الفنية بالاقتصار على ممثل مغربي واحد (هشام بهلول)، فيما يمكن اعتباره جهلاً بما وصلت إليه الدراما المعاصرة، وربما أيضاً تعالياً مشرقياً، في وقتٍ يتناول المسلسل مقطعاً تاريخياً فاصلاً في تاريخ المغرب العربي. بيد أنّ ذلك كله لا يعفي الجانب المغربي من المسؤولية، فما الذي يمنع الشركة العامة للإذاعة والتلفزة من أن تستثمر جزءاً مما يُصرَف في ميزانيتها من أموال دافعي الضرائب في إنتاج عمل درامي يؤسّس لسردية مغربية مغايرة حول فتح الأندلس، عوض ما تنتجه من برامج تافهة وأعمال فنية ضحلة كالتي تعرض حال

الشيخ الأصولي والنائب شبه النسوي

دلال البزري

الشيخ سامي خضرا من الوجوه المعروفة في الوسائل الإعلامية الناطقة باسم حزب الله وإيران: إذاعة النور وقناة المنار اللبنانيتَين، وقناة الكوْثر الإيرانية. يفتي بانتظام في شؤون الدنيا التفصيلية، ويُصدر الكتب بغزارة، ويمكن القول إنّه «المثقف العضوي» الأصولي المُندمج تماماً مع «بيئته» ومع الحزب الذي يحكمها. ذاعَ صيته في أثناء الثورة (حراك 17 أكتوبر/ تشرين الأول) بعدما خدشته النساء اللبنانيات المشتركات فيها. فـ«اعتذر» للعرب والمسلمين عما وصفها بـ«الصورة السيّئة الموبوءة التي نُقلت عن المرأة اللبنانية خلال ما يُسمّى بالتظاهرات والصورة السيّئة عن كلّ المجتمع اللبناني خاصة المرأة». وقد انصبّ استياؤه على» لِباس المتظاهرات»، على «حركتهن وألفاظهن». أي أنه، بصفته رجلاً لا يقبل بأقل من لباس التشادور الإيراني، الموحَّد والمرْصوص... شكّل مشهد اللبنانيات في تظاهرات الثورة استفزازاً لمعاييره الأصولية: بتعدّدهن، بحرّيتهن، بتنوعهن الطائفي والأيديولوجي والمناطقي بملبسهن وهندامهن ولغة جسدهن، بصياغتهن الشعارات وبقيادتهن التظاهرات...

ضربَ الشيخ مرة أخرى، واستثار ردود أفعال إضافية، عندما اقترح على النساء أن يضعن صورةً لشجرة بدل صورتهن الشخصية، على مواقع التواصل. تساءل: «منذ متى يضع رجلٌ لديه كرامة وشرف صورةَ ابنتِه «الصبية» ويمكن لأيٍّ كان سحبها؟» تابع: «هل تعلمون أنّ لبنان شهد منذ أشهر حتى اليوم حالات انتحار عدّة جرى التعتيم عليها، وسببها أنّ صور وسائل التواصل تم نشرها فاحتارت صاحبة الصورة ماذا تفعل، وأقدمت على الانتحار؟». وحفظاً على حياة هذه المرأة، طلبَ الشيخ من قوى الأمن اللبنانية والعالمية منع نشر هذه الصور، فاقترح تلك الشجرة بدل الوجه. وانضم بذلك إلى قافلة العاملين على امّحاء الوجود النسائي من المجال العام. الأول في التظاهرات والثاني في مواقع التواصل. لا جسم لها ولا وجه...

لا نعرف عدد الضربات التي تلت الضربتَين السابقتَين. ربما كثير ربما قليل، لم يصل إلى مسامع الجموع، أو يُحدث ضجّة ما. لكنّ الضربة أخيراً جاءت من مكان آخر. من مكان كراهية الطوائف الأخرى، بعد كراهية النساء. فعلى إثر دعوة أمين عام حزب الله، حسن نصر الله، كلّاً من الوزيرين السابقين سليمان فرنجية وجبران باسيل، المسيحيَيْن، إلى إفطار، غرضه حلّ الإشكال الانتخابي بين الرجلَين، قامت قيامة الشيخ خضرا، فعلّق على «تويتر» بأنّ دعوات على الإفطار لغير المسلمين كهذه، هي «موضة جديدة» على غرار موضة الخيم الرمضانية ذات العزّ الغابر، وأنّ دولة الإمارات هي التي ابتدعتها «باستضافتها لممثلين عن طوائف بوذية وهندوسية ويهودية ونصرانية (لاحظ «نصرانية» بدل «مسيحية»)) وغيرها على مائدة الإفطار». وأنّها بدع «لا يجوز» أن تستمر لكونها «من أنواع تمييع العقيدة وشهر الله تعالى بطريقة لم يألفها المسلمون من قبل».

تكلّمَ الشيخ وكأنّه واحدٌ من أولئك السلفيين السنّة الفائضين، الذين ينزلون الفتاوى بالآلاف، وكلها تربط بإحكام بين ازدراء النساء وكراهية كلّ ما هو «نصراني ويهودي». استطاع أن ينقل لسان الإرهاب السنّي إلى الإرهاب الشيعي. وذلك بعدما تمكّن هذا الأخير، الإرهاب الشيعي، أن «ينتصر» على الأول، السنّي، في معركته على الشعب السوري ومن أجل بشار الأسد. والشيخ خضرا يتكلم هنا عن بلدٍ يقوم ميثاقه ودستوره وعاداته وتقاليده على التجاور والتَزاور الدينيين والمذهبيين، وفي لحظة تتطلب من حزب الله أقصى درجات مسايرة المسيحيين لينقذ حليفه جبران باسيل من السقوط في الانتخابات المقبلة، فتمتنع عليه ساعتها رئاسة الجمهورية. أي أنّ «الظرف» يحشُره، وأنّه لا يستطيع أن يذعن لفتاوى شيخه، أو يؤجل الدعوة مثلاً إلى ما بعد شهر الصيام.

مارسَ الحزب ضغوطاً كواليسية على الشيخ خضرا، لم تلبث أن أدّت إلى سحب تعليقه من «تويتر». فقط لا غير، أي السكوت عن هذه الألفاظ «غير المناسِبة» في هذا الوقت بالذات، فعادَ الشيخ إلى الإذاعة والقناتَين يبثّ فيهما فتاويه واجتهاداته، المثيرة، أو غير المثيرة للجدل، فلم يخسر غير تعليقه التويتري.

الآن: تستدعي ردود فعل حزب الله الرحيمة تجاه الشيخ خضرا واقعة أخرى، حصلت منذ ثلاث سنوات، قبل أشهر من اندلاع الثورة. كانت الساحة تضجّ باحتجاجات واعتصامات نسائية وقفت أمام مبنى المحكمة الجعفرية للتظلّم على قانون الحضانة المجحِف، وعلى وقوف المشايخ إلى جانب الزوج وامتيازاته الجنسية... تبرز واقعة نواف الموسوي، النائب في البرلمان عن حزب الله. والمعروف عنه، قبل ذلك، أنّه كان النائب المسلم الوحيد الذي وقّع على اقتراح تعديل قانون حماية النساء وسائر أفراد الأسرة من العنف، والذي قدّمته منظمة كفى إلى المجلس النيابي، ومعه تسعة نواب غير مسلمين آخرين. ومعروفٌ عنه أيضاً وقوفه ضد زواج القاصر، وألّا تزوَّج إلّا عندما «تصبح راشدة». قبل ثلاث سنوات، رأيناه وهو يخوض معركة مع طليق ابنته، معركة علنية وعنيفة بوجه الشرطة المحلية، ضد طليق ابنته، دفاعاً عن حقها برؤية وليدها بعد طلاقها. وكان للحادثة صدى إيجابي لدى جمعيات المرأة. لكن لم يكن للحزب الموقف نفسه، فسرعان ما أُقيل الموسوي من وظيفته البرلمانية، واستُبدل بنائب آخر، فاز بالتزكية.

إذاً، كان هناك اختلاف في المعاملة، بين الشيخ الذي يهرْطق بقانون الميثاق والدستور والأعراف اللبنانية الدنيوية والنائب الذي يهرْطق بقانون السماء المزعوم والمنقول عن طريق ألْسنة الشيوخ. الأول تستّر حزب الله على ضرباته، فلم ينَل سوى عقاب سحب تدوينةٍ نشرها في «تويتر». ومضى يمارس حضوره الإعلامي بلا قطع. فيما أقصى الحزب نفسه نائباً انحاز إلى بعض الطروحات النسوية من الباب العاطفي الصرف، إذ بقي يردّد بعد إقالته: «بين النيابة، والأبوة، اخترتُ أن أكون أباً».

وفي الأصل، الشخصية التي رجّحت ميزان القوى لغير صالحه في واقعة الموسوي ودفاعه عن ابنته هو الشيخ محمد توفيق المقداد، مدير مكتب الوكيل الشرعي لعلي الخامنئي (مرجعية حزب الله) في لبنان، فالمقداد والد طليق ابنة الموسوي... واضح أنّ موقع الشيخ الأصولي المتطرّف في الحزب أقوى من موقع النائب في البرلمان. الشيوخ ثابتون والنواب متغيرون. يكفي للنائب أن يمشي على صراط الحزب ليستمرّ في دوره. ويُسمح للشيخ أن يخرج عن بيئته وجمهوره بهرطقاتٍ وطنية، فيبقى على دوره السابق... لماذا؟ لأنّ الشيوخ المتطرّفين هم المادة الحية لمشروعهم، و«المدنيين» هم التابعون لتعليماتهم، وللإذعان لشريعتهم. هم صلة الوصل بين الحزب وإيران. يتماهون معها بالشكل والمضمون. قيادة الملالي هي صيغة الحكم الإيراني. والشحن المذهبي المطلوب للبقاء على حكمهم يقوم به الشيخ المعمَّم على أفضل الوجوه. وليس «المدني» الذي يستمدّ شرعيته من قوانين وضعية، هو العدو اللدود لدعاة الشريعة الدينية. وفي أثناء هذا الشحن، يُحرَج الحزب أحياناً، وفي ظروفٍ معينة مثل الانتخابات، لكنّه لا يتزحْزح عن أصوليته. ولا مكان هنا في هذه المقالة لعشرات الأمثلة عن هذه الارتكابات، فالشيخ هو من صميم التكوين الأصولي للحزب. رمزُه وعلامته وكينونة أمينه العام ونائبه.

والشيخ خضرا، مثل جمهور الحزب عندما يخرج عن طوعه، ويصرح ما تيسرّ به في بيئته. مثل أمواج الحقد والكراهية التي يقتحم بها أنصاره الشارع، متجاوزين كلّ مضامين العيش المشترك ومطلقين صيحات «شيعة شيعة» من على الدرّاجات، ونشوتهم الانتصارية العاصية على الحدود. يليها «تهدئة» ودعوات الذباب الإلكتروني إلى الصمت عن هذه الواقعة أو تلك، والمذهبية بكلّ الأحوال.

افتُتنَ حزب الله بالنظام الطائفي، وعرف كيف يعشّق مفاصله على مصالحه «الاستراتيجية». قبله كان المارنة، وبعدهم السنّة. والآن دوره في قيادة سفينة الطوائف. ولأول مرّة في تاريخ لبنان، تقود طائفة البلاد، وهي على تركيبة وأيديولوجيا أصوليتين، تنتميان إلى الجناح الرجعي من نظام أصولي، أي الحرس الثوري في إيران. وخطورة هذه الأصولية أنها لن تتوانى عن ضرب آخر القواعد الاجتماعية التي تقاومها في لبنان: تلك التي ترسخت في المجتمع، وأفضتْ إلى بعض حريته... والسؤال الباقي: إلى أي حدّ يمكن لحزب الله أن يجرّ المجتمع اللبناني إلى مزيد من الظلام؟ أو، إلى أي حدّ يمكن لهذا المجتمع أن يقاومه؟

(كاتبة لبنانية)

> لأول مرّة في تاريخ لبنان، تقود طائفةُ البلاد، وهي على تركيبة وأيديولوجيا أصوليتين
>
> موقع الشيخ الأصولي المتطرّف في حزب الله أقوى من موقع النائب في البرلمان. الشيوخ ثابتون والنواب متغيرون
>
> افتُتنَ حزب الله بالنظام الطائفي، وعرف كيف يعشّق مفاصله على مصالحه «الاستراتيجية»

الهروب من «إسرائيل»

حلمي الأسمر

(1)

ينذُر أن يتحدّث أحد عن عمليات الهروب من كيان العدو، ومن يتحدّث فيه يكون على استحياء، وفي سياق غير متوقع، أو غير السياق الواجب أن يجري الحديث فيه، كأن يتحدّث أحدهم عن أهمية حصول «الإسرائيلي» على جواز سفر ثان، على سبيل «الاحتياط!»، في حال احتاج الأمر إلى الهروب من «أرض الميعاد». وفي هذه المسألة تحديدا ممنوع الحديث فيها، باتفاق صامت بين الجميع، فلا نعرف مثلا كم عدد سكان الكيان اليهود الذين يحملون جنسية ثانية، أما هم أو من يخطّط ويدبر فبالتأكيد يعرفون، ولا يجرؤون على الحديث فيها، ويمكن هنا تقدير عدد هؤلاء من واقع قراءة عدد من «هاجر» إلى الكيان تاركا بلده الأصلي، فمن جاءوا من بلاد عربية أو شرقية يفترض أنهم لا يعودون يحملون جوازات سفرها، أما من جاءوا من بلاد الغرب فالمفروض أنهم لم يزالوا يحتفظون بجنسياتها. وبحسبة عشوائية مقاربة للواقع، لو افترضنا أن الشرقيين والغربيين يقتسمون الكيان مناصفة، فهذا يعني أن لدى نصف «البلد» جوازات سفر أخرى مفعلة وجاهزة للاستعمال في حال اقتضى الأمر الهرب من «بلاد السمن والعسل».

في أماكن نادرة رصدتُها غير مرّة، تحدث كتّاب وأعلام يهود عن هذه الاحتمالية، جاءوا على ذكرها عرضا وسريعا، في معرض الحديث عن تحوّل «الأرض الموعودة» إلى أرض صراع دائم، بعد أن اتضحت أكاذيب وأوهام كثيرة قامت على أسسها، منها مثلا مقولة بن غوريون إن الكبار يموتون والصغار ينسون، فلا الكبار ماتوا «كلهم» ولا الصغار ينسون، بل ربما حرس الصغار حلم الكبار و«جرّموا» من نسي من الكبار. ومن تلك المقولات الفاشلة فشلا ذريعا أن فلسطين أرض بلا شعب، وتلك أكبر كذبة شهدها تاريخ المنطقة، ولم يدانيها في الكبر إلا كذبة سعي النظام العربي الرسمي إلى «رمي إسرائيل في البحر»، ذلك أن هذا النظام رمى في البحر أبناء البلاد وملاكها من الفلسطينيين الذين سهل النظام العربي الرسمي هجرتهم باتجاه بحر الرمال شرقا، وبحر الماء غربا، وتلك مفارقةٌ بدت أكثر افتضاحا بعد أن هرول رموز هذا النظام إلى ما يسمّى «التطبيع»، وهو تعبير أكثر صدقا في توصيف الحال، لأنه يعني العودة إلى الصيغة «الطبيعية» بين الأطراف. وكان المخيال العربي الشعبي واهما، حين جفل من استعمال المصطلح على اعتبار أنه «لم يكن يعرف» أن ولاة أمره يعيشون «علاقة طبيعية»، بل ربما غرامية، مع عدوه الأزلي، وأن كل زمجرات وسائل إعلامهم باتجاه «العدو الصهيوني» لم تكن إلا جعجعة بلا طحن وكذبا وقحا، فقد كانت المياه تسري من تحت أبناء الشعب العربي، الذي ظل ينتظر «التحرير» فجاءه العصر الذي يعاقب فيه العربي على حبّ فلسطين، ناهيك عن ترجمة هذا الحب إلى عمل، حيث يصبح التحرير أو التفكير فيه «إرهابا» يستحق العقاب في «قوانين الأمن القومي العربي!». ولعل هذا الدرك الذي وصل إليه العربي هو ما جعله أكثر حرصا من «الإسرائيلي» على الهروب من بلاده وحيازة جواز سفر ثان، ودفع هذا المسكين ثمنا باهظا لتحقيق هذا الحلم الذي طالما ابتلعه السمك في بحار العالم التي لم تحتمل تحقيق هذا الحلم، فدأبت على تغييب «قوارب الموت» في ظلمات الماء، ولم نسمع بالقطع عن زورق يحمل «يهودا» أو أوكرانيين مثلا حاول «العودة» أو الهرب إلى الخارج، فهؤلاء يُستقبلون عادة بالأحضان الدافئة وبيوت الإيواء المجهزة بما لا يحلم به معظم العرب في بلادهم!

(2)

في قصة هروب الغرباء من فلسطين وطبيعة مشاعرهم تجاه الأرض التي اغتصبوها مسألتان: الأولى متعلقة بما يسمّونها ذكرى الكارثة، والمقصود بها ما حلّ باليهود على يد النازية في القرن الماضي، ثمّة منظمة تسمى «بنيما» (الداخل) أجرت استطلاعا حديثا بمناسبة اقتراب ذكرى «الكارثة» يتبين منه أن 47% من الإسرائيليين يخشون من كارثة ثانية للشعب اليهودي. يطرح الاستطلاع النادر الأسئلة الأكثر تفجرا بالنسبة لحفظ الذاكرة والخوف الوجودي لمجتمع قام على أساس سرقة أرض وحياة شعب آخر، وضمن أمور أخرى، الخوف من كارثة ثانية، تتسبّب بها حالة الصراع المحتدم مع السكان الأصليين، الذين لم يسلّموا باغتصاب أرضهم، ويبدو أنهم لن يفعلوا هذا لا في المستقبل القريب أو البعيد، وهو أمرٌ يرفع نسبة الخوف في أوساط كثيرين، ويجعلهم أكثر حرصا على حيازة طوق نجاة، وهو جواز سفرٍ ثان، للهروب في الوقت المناسب!

يتبيّن من استطلاع المنظمة التي تضم «نخبة من رجال الكيان بينهم رئيسا أركان جيش العدو السابقان بيني غانتس وغابي أشكنازي، (غانتس وزير الحرب الحالي) ومجموعة من القادة السياسيين والعسكريين السابقين والقادة الاجتماعيين، أن النساء يخفن أكثر (55%) مقارنة بالرجال (42%). بينما الشبان أيضا في تفاصيل الاستطلاع التي ربما تظهر بعض جوانب المسألة، وتحدد من يخافون أكثر: 24% من الإسرائيليين حتى سن 24 أشاروا إلى أنهم يخافون جدا من أن تكون كارثة ثانية (لهذا دلالة على انعدام اليقين لدى الشبيبة من المستقبل المخيف الذي ينتظرهم)، مقابل 12% في أوساط الإسرائيليين فوق سن 45. كما يتبين أيضا أن 23% ممن عرّفوا أنفسهم يهودا – حريديم قالوا إنهم يخافون جدا من أن تكون كارثة ثانية، مقابل 11% في أوساط العلمانيين. ومصدر خوف الحريديم كما يبدو نابع من أنهم متدينون ويعرفون أكثر من غيرهم نبوءات في التوراة تشير إلى زوال «إسرائيل» ودمارها، وبالتالي حدوث كارثة ثانية!

في السياق الطبيعي، شعور الخوف هذا يكفي لتهيئة النفس للهرب من كارثة محتملة، وهو لافت جدا لجهة ارتفاع نسبة الخائفين، ولعل هذا يعلّل مرة أخرى وجود الحرص لدى «الإسرائيلي» للحصول على جواز سفر ثان.

أما المسألة الأخرى التي تلفت النظر فهي خاصة بعدد ساكني مستعمرات الضفة الغربية، وحقيقة «هروب» عدد كبير منهم منها، خلافا لما أعلنه رئيس مجلس المستوطنات (المسمّى يشع) ديفيد الحيان، الذي خرج على الجمهور الصهيوني قائلا: «نحن سعداء لتبشيركم بأنه في هذه السنة يتوقع أن نتجاوز سقف مليون مواطن في يهودا والسامرة». يعقب الكاتب شاؤول أريئيلي في مقال له بعنوان «لا تسمحوا للمستوطنين بالكذب عليكم» في صحيفة هآرتس يوم 2022/4/21:

«مثلما في كل سنة، بعد بضعة أسابيع على نشر تقرير مجلس «يشع»، أيضا المكتب المركزي للإحصاء نشر بيانات تظهر أن تقرير المجلس يكشف عن الجانب الإيجابي، ويخفي الجوانب السلبية. وهذه البيانات تحول احتفال النصر الاستيطاني إلى مهزلة. بعد فحص البيانات والتوجّهات الموجودة في تقرير المكتب المركزي للإحصاء، فإن ذرة الحقيقة في تقرير مجلس «يشع» تتضاءل، وتنقلب الأمور رأسا على عقب، ونحصل على صورة محزنة جدا بالنسبة لأتباع الأسطورة المذكورة أعلاه». والأسطورة التي يتحدّث عنها «يشع» أن عدد المستوطنين يزيد، أما الحقيقة فإن عددهم يقل، بل هناك عملية «هروب» من المستوطنات إلى الداخل الفلسطيني، وهذا ما تكشفه بالتفصيل بيانات المكتب المركزي للإحصاء، وفي وسع من يريد الاستزادة العودة إلى المقال. من السابق لأوانه الحديث عن عملية هروب جماعي للمستوطنين، سواء كانوا في الأراضي المحتلة عام 1967 أو 1948. ولكن إن استمرّت عجلة الصراع بالدوران حسب وتيرتها الحالية، وتسارعها التدريجي كما هو باد من إيقاع الصراع، فلربما يشهد جيلنا هذا، أو الجيل القادم على أسوأ تقدير، عملية الهروب المنتظرة، ويمكن أن يُلاحظ هنا أن عملية الهروب هذه قد بدأت وإنْ بوتيرة بطيئة. وفق مراكز الإحصاء المتخصصة داخل «إسرائيل»، سجَّلت مؤشّرات الهجرة المعاكسة من «إسرائيل» إلى أوروبا أن 19 ألف يهودي بين عامي 2004 و2006 غادروا من دون رجعة، وجاء العدد الأكبر في 2007 حينما غادرها 25 ألفاً نتيجة فقدان الشعور بالأمان. ووفق دراسة صدرت عام 2018، بعنوان «الهجرة اليهودية المعاكسة ومستقبل الوجود الكولونيالي في فلسطين»، بلغ عدد الذين تركوا «إسرائيل»، خلال العقود الأخيرة، بمن فيهم يهود الاتحاد السوفييتي السابق، مليوناً ونصف مليون.

ونشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية إحصاءً صادراً عن مركز الإحصاء الإسرائيلي، وفيه أن عدد اليهود الذين غادروا «إسرائيل» عام 2015 فاق عدد الذين عادوا إليها، وأن نحو 16700 إسرائيلي غادروها فيه، من أجل العيش خارجها فترة طويلة. وكان هذا بعد العدوان الصهيوني على المقاومة الفلسطينية عام 2014، وعاد منهم فقط 8500، وهي أدنى نسبة تسجَّل منذ 12 عاماً. كما تفيد تقديرات إحصائية إسرائيلية، صدرت أخيرا، بأن ما يتراوح بين 800 ألف ومليون مستوطن، ممّن يحملون جواز سفر إسرائيلياً، يقيمون بصورة دائمة في دول متعدّدة، ولا يرغبون بالعودة إليها.

(كاتب من الأردن)

> بين 800 ألف ومليون مستوطن، ممّن يحملون جواز سفر إسرائيلياً، يقيمون بصورة دائمة في دول متعدّدة، ولا يرغبون بالعودة إليها
>
> سجَّلت مؤشّرات الهجرة المعاكسة من «إسرائيل» إلى أوروبا أن 19 ألف يهودي بين 2004 و2006 غادروا من دون رجعة

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads